النهار ٢٨/ايلول/١٩٦٢

(١)

الإنسان في وحدة الكون تبعاً للإيزوتيريكية [١]

الجسد الكوكبيّ من شعور وعقل ومعرفة وإرادة

"وتحسب انك جرم صغير/ وفيك انطوى العالم الأكبر"
ابو العلاء المعري

مل زمن اليوم غير زمن ابي العلاء المعري، الذي ادرك ان الانسان جسداً وروح يحوي اسرار الكون في أدق تفاصيله، ومن هنا اهمية وجوده وحياته وكل اختياراته؟ وزمننا، زمن العلم والمعلومات التي تنهال علينا في المدارس والجامعات والكتب والاذاعات والتلفزيونات والانترنت، زمن التكنولوجيا في قمة سطوتها المستبدة، لم يعط انسان هذا العصر اي اطمئنان الى معنى وجوده، لذا سعادته آنية والسؤال عن معنى الحياة لا يزال ملحاً. حتى الدين لم يقدّم جواباً مقنعاً لأن انسان الدين انسان خاطئ، ولد في الخطيئة وحياته ليست الا فرصة للتكفير عن تلك الخطيئة – مع ان المسيح اتى واخذ عن الجنس البشري كل خطاياه وكان واضحاً ان الثوب الجديد لا يرقع بقطعة من الثوب القديم. والخالق الرحيم يقف بالمرصاد للخاطئين ليلقي بهم في نار جهنم، رغم انه رحوم ومحب وأب للجميع.

امام هذا التناقض في مفهوم الحياة ومعناها وعلاقة الانسان بالانسان وعلاقته بالخالق وشعوره بالوحدة وبعدم جدوى الحياة احياناً كثيرة، نشأ علم النفس الذي حاول التوصل الى حلول تزيل اوجاع النفس وتطمئنها، ونجح بعض الشيء في التخفيف من اعراض القلق والكآبة بالتحليل والعقاقير المهدئة. لكن محاولات العلم في مختلف ميادينه بقيت سطحية المفعول غير شاملة، الى ان بدأت بوادر الحكمة الشرقية الآتية من الهند تدقّ ابواب الغرب حاملة سطور الحكمة والمعرفة وعبرها اجابات واضحة وجذرية على اسئلة انسان هذا الزمن. يقول حضرة عناية خان المتصوف الهندي واول من نقل مبادئ التصوف الى اميركا في هذا القرن، ان في الشرق ثلاث مدارس ايزوتيريكية (باطنية) الجذور تحمل مفتاح معرفة اسرار الكون والوجود والغاية منه: المدرسة الڤيدانتية التي تعتمد كتب الڤيدانتا، والمدرسة البودية، والمدرسة الصوفية.

ما هي نظرة تلك المدارس الى "الانسان"؟

تقول علوم الايزوتيريك أن جسد الانسان المادي ذا الذبذبات الكثيفة يضم ستة اجسام اخرى نبذبية التكوين، الجسم الاثيري او جسم الصحة ومنه تمتد الهالة AURA خارج الجسد المادي. والجسم الكوكبي: جسم المشاعر والعواطف. والجسم العقلي، جسم الفكر والذكاء. وجسم المعرفة: وهو جسم المحبة والقلب وجسم الإرادة، واخيراً جسم الحكمة، وهو جسم الروح. وتلك الاجسام تشكل وحدة الانسان الكون الصغير. كيف؟

"بريماد ارنيكا" اوپانيشاد، احد كتب الڤيدانتا – شرحها الحكيم كريشناناندا بالانكليزية وصدرت الطبعة الاولى منها سنة ١٩٨٤ في نيودلهي – تتحدث عن عناصر التكوين التي تشمل كل عملية الخلق. يقول الحكيم كريشناناندا ان الكون والانسان مكوننان من خمسة عناصر: التراب والماء والنار والهواء والاثير. والفراغ الذي تتضمنه عملية الخلق يفرّق بين المخلوقات، يفرّق اجساد الناس ويفصل الفرد عن باقي الكون. ويجعله يشعر بالوحدة، وذاك الشعور ناتج من عملية انفصال الفرد عن المطلق.

ما هي العلاقة بين الفرد والمطلق؟

في بدء التكوين، عندما لم يكن هناك فرق بين الرائي والمرئي لغياب امكان الوعي الخارجي بسبب انعدام حركة الحواس، لم يكن هناك فرق بين المدرك (بكسر الراء) والمدرك (برفعهما). اذن لم يكن هناك وجود. وعملية خلق الكون لم تكن عملية فبركة مادة جديدة. لم تكن الا امتداداً خارجياً لمطلق غير قابل للانقسام. المسبب كان من صلب السبب، والذي فرق السبب عن المسبب حال خاصة من الوعي حصلت داخل المسبب، وهكذا افترق المسبب عن السبب ونشأت البذرة الاولى للتنوع والامتداد من خلال التكاثر فاللون والصوت، الخ. عملية الانقسام الذاتي تلك، التي تقضي على وحدة الذي لا يقسّم والتي تعزل الواحد عن الآخر تتسبب بحال جوع الى الانضمام والعودة للاتحاد بالوعي او بالاصل.

تقول الحكمة الهندوسية ان الكلمة في البدء كانت نبذبات تكثّفت وتشكلت وتجسمت – كما في انجيل يوحنا – تلك الذبذبات هي مصدر الكون بكل ما فيه، واصغر اشكاله الذرة المؤلفة من نواة مركزية وفراغ وجزيئات دو ذرية تتحول كلها الى حقول طاقة لدى تفكيكها. واظهر فيزياء الكم ان الجزيئات الدو ذرية لا تتمتع بأي مدلول لكينونة منعزلة، لكنها تفهم فقط على انها روابط بين قوى مختلفة للمراقبة والقياس. نظرية الكم اذن، تظهر وحدة اساسية للكون والوجود. فلدى اختراق المادة، تظهر شبكة معقدة من الصلات بين اجزاء متنوعة من كل موحّد.

ونموذج الذرة بنواتها والفراغ والجزيئات الدو ذرية يتكرر في معظم اشكال الوجود. فالخلية CELL تتبع النموذج نفسه، والجسد في أكمله ونواته القلب الى ملايين المجرّات الشمسية التي تدور حول شموسها والشمس دائماً هي النواة، الى تركيبة المجتمع ونواتها الحاكم، حتى في مجتمع الحشرات كالنحل والنمل هناك الملكة النواة. والمادة في الكون ليست جامدة اطلاقاً بل في تذبذب ورقص دائمين تماماً كخلايا الانسجة لدى الانسان وفي كل شيء تدب الحياة، وفي حركة الكواكب ضمن ملايين المجموعات الشمسية التي نعرف ولا نعرف بعد.

والانسان كون صغير لأن اعضاء جسمه هي شبكة واحدة كثيرة الاجزاء تمثل كل ما في الكون، ابتداء من المجرّات وانتهاء بحال الوعي الشامل الذي "ينام" داخل كل منا الى ان يستفيق.

حياة ابو فاضل

(يتبع جزء ثان)

١٦٣-١